محطات في سيرتي الذاتية
د. فوزي بن عمران
مرحلة إعدادي الطب (1970 – 1971)

عندما بدأت تأليف كتاب سيرتي الذاتية؛ خطر لي أن أستبق نشر الكتاب بنشر مقتطفات منه خلال فترة الإعداد التي أعلم أنها قد تطول. وجعلت كل حلقة تدور حول محطة مهمة تتمثل في مرحلة معينة أو علم من الأعلام الذين التقيت بهم أثناء مسيرة نصف قرن من الزمن، أو مكان يعبر عن تلك المرحلة الفائتة؛ وعنونت الحلقات حسب المراحل أو أسماء أولئك الأعلام أو تلك الأماكن. وآمل أن يحقق النشر على هذه الكيفية عدة أهداف؛ أولها أن التزامي بالنشر المتعاقب للمقتطفات دافع على المواصلة لإتمام الكتاب. والهدف الآخر أن نشرها سيتيح للمعنيين والمهتمين فرصة إثراء ما أكتب بتعليقاتهم وإضافاتهم وتصحيحهم إن بدر مني تقصير أو قصور أو زيادة أو نقصان. وعندما يصدر كتاب السيرة الذاتية سيكون مرتباً زمنياً، ولكنني لن أتحرى الترتيب الزمني في سرد هذه المقتطفات، ولن يدل ترتيب نشرها على أولويات أهميتها في حياتي.

عقب الانتهاء من دراسة السنة الثالثة الثانوية خلال العام الدراسي 1969- 1970 وحصولي على شهادة إتمام الدراسة الثانوية في يونيو 1970، انتهى بي المطاف في جامعة طرابلس في سبتمبر 1970م لدراسة السنة الإعدادية للطب في كلية العلوم. كنت من بين خمسين طالباً وطالبة من أوائل الشهادة الثانوية اختيروا للإيفاد لدراسة الطب في الخارج، ولم يكن مشروع إنشاء كلية الطب في ليبيا قد اكتمل، وكنا نعرف أن ثمة اتفاق مع كلية الطب بجامعة (برمنجهام) لتقوم بالإشراف على الكلية المزمع إنشاؤها خلال السنوات الأولى. بين عشية وضحاها باغتنا إعلان في نشرة الأخبار يقول أن على طلبة البعثة التوجه إلى كلية العلوم بطرابلس لدراسة السنة الإعدادية، وكانت مغامرة من جانب صاحب القرار أن يُشرع في الدراسة قبل الأوان.

حملت حقيبتي وسافرت إلى بنغازي عن طريق سيارات النقل الجماعي، ومنها إلى طرابلس بالطائرة. الرحلة من درنة إلى طرابلس أرويها في حلقة (الطريق إلى طرابلس)، لذلك لن أتعرض إليها الآن. استقبلني في مطار طرابلس ابن عمي الدكتور عبد الحي محمود بن عمران الذي كان بمثابة الأخ ويكبرني بخمس عشر سنة. كان حاصلاً على الماجستير في هندسة النفط ويتولى مهمة إدارة مشروعات الغاز بالمؤسسة الوطنية للنفط. لم يكن عبد الحي (يرحمه الله) قد تزوج حينها، ومكثت معه في منزله بمنطقة (حي الأندلس)، غير أنه سافر بعد أيام قليلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الدكتوراه فبقيت في منزله وحيداً حيث مكثت لمدة تربو على الشهر إلى أن قيض لي الله الحصول على سكن في بيت الطلبة.

عندما أتممت إجراءات التسجيل في الكلية اكتشفت أن بيوت الطلبة لا تستوعب كل العدد الذي توافد على الجامعة من خارج طرابلس. علمت أيضاً أن هذه المشكلة تتكرر سنوياً بسبب مشاكل إدارية ومالية. اعتبرت نفسي محظوظاً لأن عندي مأوى في منزل ابن عمي، وصرت أتنقل بالمواصلات العامة كل صباح؛ من حي الأندلس إلى (ميدان السويحلي)، ثم من الميدان إلى الجامعة في (سيدي المصري)، ويتكرر ذلك بالعكس عندما أتوجه قافلاً إلى البيت في المساء. استمر ذلك لمدة شهرين إلى أن استأجرت الجامعة عمارة سكنية في منطقة (الظهرة) وحصلت على مكان فيها. جرى توزيع الطلبة بواقع كل اثنان أو ثلاثة طلبة في غرفة حسب مساحتها، وسكنت في تلك العمارة مع زملائي إبراهيم عبد الله بيت المال وعمران المهدي الفيتوري.

أول الأيام في طرابلس كانت صعبة بالنسبة لي، وكان عمري وقتها سبع عشرة سنة! ما كان

أصعب الغربة وفراق الوالدين والأهل والأماكن المألوفة.

كنت الطالب الوحيد القادم من درنة لدراسة الطب. عندما اطلع والدي يرحمه الله على قائمة الطلبة المنشورة في الصحيفة قرأ اسم أحد الطلبة وقال لي أنه من درنة وأنه يعرف والده ولكن والده انتقل للعيش في طرابلس منذ مدة طويلة. ذلك هو الصديق المهدي المبروك الجبياني؛ الذي يعمل ويعيش الآن في بريطانيا. طبعاً لم أتعرف على مهدي ولا سائر الطلبة مباشرة، فقد انقضت أيام قبل أن يحدث الاندماج والتعارف، كالمعتاد في بدايات الفصول الدراسية. صباح أول يوم في الدراسة دخلت قاعة المحاضرات الكبرى بكلية العلوم متأخراً قليلاً، فقد رحت أبحث عن مكان المحاضرة إلى أن وصلت إليه وهو عبارة عن مدرج مسرح. كان المدرج مكتظاً بالطلبة، حيث كان يفترض أن نتلقى المحاضرات العامة مع طلبة كلية العلوم، فكان المجموع يربو على المائتين. كان الدكتور محمد أبو النجا (عرفت اسمه لاحقاً وهو مصري) يلقي محاضرة في مادة الكيمياء، وقد أدهشني وقتها أنه كان (يرطن) باللغة الإنجليزية! لم يخبرني أحد بأن الدراسة في ليبيا ستكون بالإنجليزية. بطبيعة الحال لم أفهم ماذا يقول. كان يكرر عبارة بالإنجليزية اتضح لي فيما بعد أن معناها (نتيجة لـ)، العبارة من مقطعين (due to) وكنت وقتها مستعد أن أدفع كل ما في جيبي – ولم يكن بالشيء الكثير – لمن يفسر لي معناها. الذي أدهشني أن طالبين في الصف الأمامي انهالا بالأسئلة على الأستاذ، وباللغة الإنجليزية، وهاأنذا الطالب المتفوق بمعيار (درنة) لم أعجز فقط عن فهم الأستاذ بل حتى عن فهم أسئلة الطلبة، وأنا واحد منهم! فيما بعد اتضح أن هذين الطالبين من طلبة كلية العلوم، وأن كليهما يعيد السنة الأولى للمرة الثانية! كما أدركت لاحقاً أنهما كانا يستعرضان مهاراتهما أمام الطلبة المستجدين وخاصة الإناث على أمل إثارة اهتمامهن ونيل إعجابهن. الطالبان هما: سالم الآغا، وعبد الرحمن بوشاقور. نظراً لانتقالنا إلى بنغازي بعد السنة الإعدادية فإنني لم أقابل أي من الفرسان الثلاثة (الدكتور أبو النجا والطالبين الآغا وبوشاقور) إلاّ بعد أن تخرجت من كلية الطب وبعد أن استكملت دراستي العليا في بريطانيا وقفلت راجعاً إلى ليبيا. الأول قابلته بالصدفة المحضة عام 1984م عندما كنت في طرابلس أزور مركز البحوث والخبرة القضائية الذي كنت أتولى رئاسة فرعه في بنغازي، وكان هو قد ترك الجامعة وانضم إلى المركز خبيراً في الفحوص الكيميائية. والثاني قابلته في طرابلس وبالصدفة كذلك عندما استضافتني كلية الطب بجامعة الفاتح أستاذاً زائراً عام 1990م. لمحته بينما كنت جالساً في بهو فندق (باب البحر) فدعوته باسمه، ولم يعرفني طبعاً فذكرته بنفسي، وقلت له مازحاً أنه وزميله (بوشاقور) كادا يدفعانني إلى ترك الدراسة والقفول راجعاً إلى درنة. جعلاني أقول في نفسي: إما أن هؤلاء عباقرة؛ وإما أن يكون سقف الذكاء في درنة منخفضاً جداً. قابلت صديقي فهيم محجوب الحصادي الذي كان التحق بكلية الهندسة فتخرج فيها لاحقاً، واكتشفت أن نفسه حدثته بمثل ما حدثتني به نفسي، حيث واجهته المشكلة نفسها في الهندسة.

كان معي في السنة الإعدادية من الطالبات: سعاد عمران الورشفاني (طرابلس)، فاطمة محمد دافه (طرابلس)، مبروكة عياد الساحلي (بنغازي)، وطالبة من بلغاريا كانت مقيمة في طرابلس مع والدها الذي كان يعمل في السلك الدبلوماسي. أما الطلبة فهم: إبراهيم عبد الله بيت المال (بنغازي)، إبراهيم رمضان جرافة (زواره)، أحمد محمد سوالم (بنغازي)، امحمد ساسي يونس (يفرن)، أبو القاسم عمرو الباروني (كاباو)، أحمد محمد راشد (طرابلس)، المهدي المبروك الجبياني (طرابلس)، مولود رمضان الأجنف (الزاوية)، سليمان الشيباني بوسريويل (طرابلس – العجيلات)، عبد العزيز حسين شمبش (بنغازي)، سالم علي التيتلي (بنغازي)، على مسعود المقدمي (طرابلس – نالوت)، علي أحمد شيبة (سبها – محروقة)، حميد ضو الطاهر (سبها – سوكنة)، عثمان أحمد بشير (هون)، علي المهدي عبيد (هون)، حسين امحمد عياد (طرابلس)، بشير عبد الله العلاقي (طرابلس – صبراته)، محمد بوعجيلة راشد (طرابلس)، محمد محمد البوعيشي (طرابلس)،

عبد الفتاح علي الأخضر (طرابلس)، نوري علي مجبر (الخمس)، حسين عريبي قرّي (زواره)، عبد السلام الصيد بيوك (طرابلس - سوق الجمعة)، صالح سليم القماطي (طرابلس)، صالح محمد رمضان (طرابلس)، عمران المهدي الفيتوري (بنغازي)، عبد الله الهاشمي قليصة (بنغازي)، معتوق أحمد عقيل (طرابلس – سوق الجمعة)، فوزي بركه رمضان (طرابلس – سوق الجمعة)، علي سالم الزواوي (طرابلس)، اسماعيل أحمد بوهدمة (اجدابيا)، أحمد علي عزو (طرابلس)، المبروك خليفة امسلّم (طرابلس)، مصطفى محمد الزايدي (قصر بن غشير)، منصور عمران عيسى (ازليتن)، عمر الزنتاني (طرابلس)، محمد علي بدوي (طرابلس)، محمد الجيلاني (طرابلس)، آمون سيتي عزيز سوريال (مصري)، حسين فهمي رابح (جزائري)، زاهر هاشم خليل الجحاوي (فلسطيني)، عبد الرحمن محمد أبو لافي (فلسطيني)، جمعة محمد عيد (فلسطيني)، سليمان محمد عابدين (فلسطيني)، بدر شفيق الشهابي (فلسطيني).

وقد تخلف عنا البعض، بعضهم (قفزوا من السفينة) قبل انتهاء السنة خشية فشل تجربة الولادة المبكرة للكلية، وآخرون التحقوا بكليات أخرى بعد أن أتموا معنا المرحلة الإعدادية (إسماعيل بوهدمة – هندسة النفط)، صالح سليم القماطي (البحرية)، صالح محمد رمضان (هندسة الطيران)، أحمد علي عزو (كلية الطب بجامعة بادوفا- إيطاليا)، عمر الزنتاني (الطيران)، محمد علي بدوي (القانون)، محمد الجيلاني (القانون)، وانضم إلينا خلال السنوات التالية طالبات وطلبة درسوا إعدادي الطب في مصر وهم: سالمة يوسف المغربي (بنغازي)، عبلة محمد صالح (مصرية)، راوية سالم ياسين (مصرية)، عبد المنعم قريو (بنغازي)، محمود العمامي (بنغازي).

انخرطنا في كلية العلوم، وألحقونا بالمجموعة التي تدرس علم الحيوان وعلم النبات، وكذلك الكيمياء العامة والعضوية والرياضيات والفيزياء واللغة الإنجليزية. وأتممنا الفصل الدراسي الأول على ذلك النحو، ولم ننتبه إلى أن ما درسناه لا ينسجم مع منهج إعدادي الطب الذي يدرسه نظراؤنا في دول أخرى إلاّ مع بداية الفصل الدراسي الثاني. سألنا عميد كلية العلوم الدكتور المهرك ووكيل الكلية الدكتور داود فقالا إن الاتفاق مع عميد كلية الطب أن يضمنا إلى إحدى المجموعات بكلية العلوم ولا يعلم ما سيحدث العام المقبل. أضربنا عن الدراسة وقمنا باتصالات لم تسفر عن أي شيء، فقررنا ذات يوم أن نذهب إلى (القيادة) في معسكر باب العزيزية وطلبنا مقابلة القائد العقيد معمر القذافي (رئيس مجلس قيادة الثورة). خرج إلينا الرائد علي الريفي وطلب أن يتقدم أربعة منا لمقابلة القائد، وأسفرت تلك المقابلة عن ترتيب لقاء جمعنا مع كل من وزير التعليم (الرائد بشير هوادي) ورئيس الجامعة (د. عمر التومي الشيباني) ووكيلها أسعد المسعودي، وعميد كلية الطب (د. رءوف بن عامر). تحركت الأمور ووعد وزير التعليم بافتتاح كلية الطب السنة القادمة في بنغازي، وبتغيير منهج الدراسة في بقية السنة ليتلاءم مع دراسة إعدادي الطب، على أن نستمر في الدراسة إلى نهاية شهر سبتمبر بدلاً من نهاية شهر يونيو.

قليل من الزملاء كان أهلهم يقيمون في طرابلس وكانوا يعيشون معهم، أما أكثرنا فكنا نقيم في بيوت الطلبة. أقمنا في بيت الطلبة بمنطقة (الظهرة)، وهي عمارة تحتوي على شقق سكنية. وخلال أشهر الصيف خلت بيوت الطلبة الملحقة بالجامعة بمنطقة (سيدي المصري) فانتقلنا إليها على اعتبار أن ذلك يوفر علينا المواصلات اليومية من الظهرة إلى سيدي المصري. كانت إقامتنا في بيوت الطلبة التابعة للجامعة بالمجان، وكان كل طالب يتقاضى منحة شهرية قدرها ثمانية دنانير. أما الطلبة الذين يقيمون خارج بيوت الجامعة؛ سواء مع أهاليهم أو يستأجرون منازل خاصة فيتقاضي كل منهم منحة شهرية قدرها خمسة وعشرين ديناراً، وذلك منطقي جداً حيث كان الطالب المقيم يكلف الجامعة حوالي سبعين ديناراً، وعليه يكون الطالب الذي يقيم على حساب نفسه قد وفر على الجامعة، فليس أقل من أن يتمتع بمنحة أكثر من الطالب المقيم على نفقة الجامعة. الشيء الآخر أن الجامعة كانت توفر الكتب للطلبة بسعر مخفض، حيث كنا ندفع فقد 40% من سعر تكلفة الكتاب،

على أن لا يتجاوز ما يدفعه الطالب ثمناً لأي كتاب مبلغ خمسة دنانير مهما ارتفع سعر تكلفته. كان في كل بيت من بيوت الطلبة الثلاثة مطعم يقدم ثلاث وجبات يومياً. الإفطار يتضمن بيضتان لكل فرد بالإضافة إلى الخبز والمربى والزبد والشاي والقهوة، والبيض إما مسلوق أو مقلي في الزيت، ولمن يرغب في بيض مقلي (وسط) فما عليه إلاّ أن يطلب ذلك من أحد الطباخين. اللحم أو الدجاج ضروري مع الطبق الرئيسي في كل من الغداء والعشاء، بالإضافة إلى الحساء والسلطة والفواكه والعصير. أما الغرف فكانت كل منها مزودة بسرير وفراش ووسادة وأغطية نظيفة تسلم لكل طالب في بداية السنة، وكذلك خزانة ملابس ومنضدة سرير بأدراج (كومودينو).

لم تقتصر علاقتي بزملائي الجدد في الكلية، فقد التحق بكليات الهندسة والعلوم والزراعة والتربية كثير من الزملاء القدامى من المرحلة الثانوية الذين جاءوا معي من درنة واستمرت صداقتنا خلال تلك السنة وإلى الآن بطبيعة الحال. التحق بكلية الهندسة: صالح السنوسي امنينة، فهيم محجوب الحصادي، فوزي إبراهيم اشليمبو، محسن المبروك بن حليم، عبد العزيز ربيع؛ والتحق بكلية الزراعة: عمر رمضان الفيتوري، غيث محمد ساسي، حسن اسويحل استيتة، علاء فخري السنوسي، عبد الله المزيني، رافع الدعيسي، علي بشر بدر؛ وبكلية التربية: مصطفى محمد بن عمران، أنور محمد بن عمران، مفتاح المسوري، عبد الله الماوي، إبراهيم الكربال؛ وبكلية العلوم: فتحي عبد الدائم ازقوقو.

مرحلة إعدادي الطب كانت مليئة بالمفاجآت العلمية وغير العلمية. الدراسة باللغة الإنجليزية كما أسلفت كانت أول المفاجآت. أما تجربة تخدير الضفدعة عن طريق إتلاف جهازها العصبي المركزي تمهيداً لتشريحها واختبار تحفيز قلبها وعضلاتها فكانت من أكثر المواقف إثارة وتشويقاً. كذلك الاختبارات المبنية على الخيارات المتعددة التي لم نكن نعرفها قبل تلك المرحلة وبخاصة فكرة غرامة الإجابة الخاطئة. الدراسة المختلطة كانت أمراً غير اعتيادي، وبخاصة أن السفور كان الصفة السائدة للطالبات. وأهم من ذلك كله بالنسبة إليّ كان الاعتماد على الذات والاستقلالية شبه التامة لأول مرة في حياتي وفي مرحلة مبكرة نسبياً. العلاقات الإنسانية العريضة مع أشخاص أقابلهم لأول مرة، يتحدثون الليبية الدارجة بلهجاتها المختلفة. استفدت كثيراً في تلك الرحلة من اللقاء بطلبة يختلفون عما ألفته من الزملاء في درنة، ابتداء من اللهجات المحلية المختلفة وانتهاءً بالخلفيات الثقافية لكل منهم. أخرجتني تلك المرحلة من الإطار الضيق المحدود والحضن الرعوي الذي وفرته لي بيئتي الصغيرة في درنة إلى فضاء أوسع وأرحب أطلق العنان لمكامن عقلي وخلجات نفسي.

عندما امتدت السنة الدراسية إلى فصل الصيف فوجئت بشدة الحرارة التي كانت تجاوزت خمس وأربعين درجة مئوية والمصحوبة بارتفاع معدلات الرطوبة النسبية. انتقلنا إلى بيت الطلبة التابع لكلية الهندسة لأنه صار خالياً لأن العطلة شملت كل الكليات عدا كلية الطب، فحظي كل منا بعرفة منفردة. أذكر كيف كنت أرش فراشي بالماء طلباً للبرودة. لم تكن مكيفات الهواء معروفة في ذلك الوقت، ولم نفكر في شراء مراوح كهربائية لأن إقامتنا كانت مؤقتة.

بطبيعة الحال توطدت العلاقة بيني وبين زملائي، وبين الزملاء وبعضهم شيئاً فشيئاً خلال تلك السنة والسنوات التي بعدها إلى أن أضحينا جميعاً بمثابة الإخوة. ربما لا تجد أخوة أشقاء يتعايشون مع بعضهم كما تعايشنا. كنا معاً في قاعات الدراسة والمختبرات والمستشفى يومياً من الصباح إلى المساء، ثم معاً في بيت الطلبة؛ ندرس معاً ونتنقل معاً ونأكل معاً، وفي الرحلات الجماعية داخل ليبيا وخارجها. حياة مليئة وغنية، اختلط فيها الجد بالمزاح، والاجتهاد باللعب، بيد أن لكل أمر وقته. عندما افترقنا في نهاية السنة كنا جميعاً نتطلع إلى السنة القادمة كي نلتقي مجدداً في بنغازي حيث سنبدأ دراسة السنة الأولى من كلية الطب.

PAGE

PAGE 1